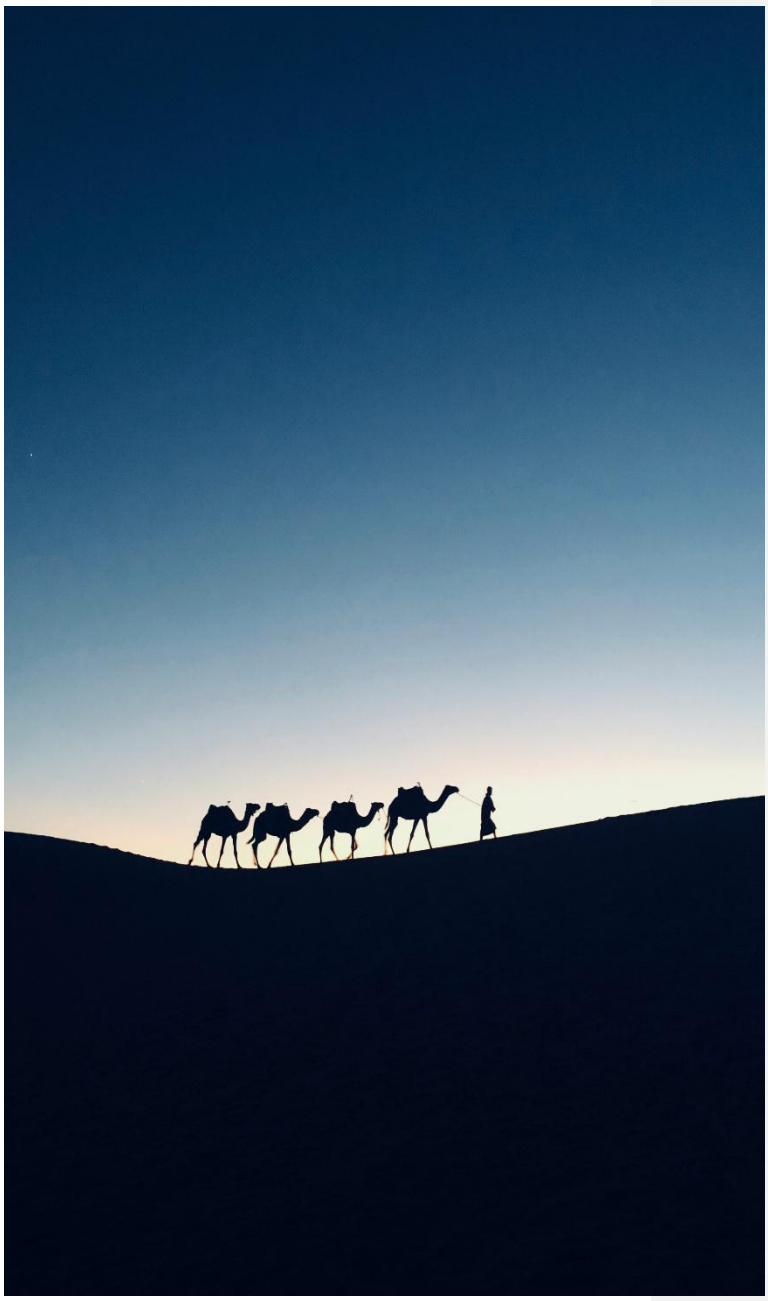

تفريغ محاضرة

حادثةُ الإفك ودروسٌ الحياة

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٤/٦/٢هـ

"حادثةُ الإفك ودروسُ الحياة"

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه، ونستعينُه ونستهديه، ونعوذُ باللّهِ من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومْن يُضللْ فلا هادي له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنّ مُحمّدًا عبدُه ورسولُه.

سنتحدّثُ -في هذه المحاضرة- عن حادثةٍ وقعتْ في عصر النّبوّة، وتُعَدُّ هذه الحادثة مَرجِعًا في مختلَف الأزمان، نعودُ إليه لِتقويم أحدِ أهمّ جوانبِ الحياة الاجتماعيّة، وتنظيمِ العلاقات مع الآخرين، تُعَدُّ هذه الحادثةُ درسًا في حُسْنِ الظّنّ، لا سِيّما بين النّساء ومَحارِمِهِنَّ القوّامين عليهنّ، سواءٌ على صعيدٍ شخصيٍّ أو على صعيدٍ عامٍّ، حديثُنا عن حادثة الإفك؛ التي حصلتْ مع أمِّنا عائشةَ - رضي الله عنها-.

- **<u>نبذةٌ عن عائشة:</u>**

هي عائشة بنت أبي بكرٍ عبد الله بن أبي قحافة، ولا بدّ أنْ نمرَّ سريعًا على أسمائها فهي:

أم المؤمنين؛ لأنها إحدى زوجات النبي ﷺ، وهي **حبيبته** ﷺ لا لأنّ المؤرّخين استشعروا ذلك الحبّ، بل لِمَا جاء في الحديث:

فعَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنَّهُ، قَالَ: **"يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». قَالَ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا"**[1].

وهي **المُبَرَّأةُ** مِن فوق السماوات السبع، الطيّبةُ لما جاء في قوله -تعالى- بعد حادثة الإفك: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾(النور: ٢٦).

وهي الصِّدِّيقةُ المُبرَّأةُ مِن فوق سبع سموات

[1] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

- **منزلتُها عندَ رسول الله ﷺ:**

كانت أكثرَ زوجات النّبيّ ﷺ غيرةً عليه، وكان النّبي ﷺ يمازحُها **فعن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ خرجَ من عندها ليلًا، قالت: فغرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال:** ما لكِ يا عائشة؟ أغرتِ؟ فقلت: "ومالي لا يغارُ مثلي على مثلك؟"[٢]

وفي حديث أبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"[٣]. وكان الثّريدُ آنذاك الطّبقَ الأساسيّ في الوجبة.

❖ حادثةُ الإفْك:

مرّ نبيّنا محمّدٌ ﷺ بعددٍ من الابتلاءاتِ والمحن منذ بعثه اللهُ - جلّ وعلا- بهذا الدّين، إلّا أنَّ أقسى محنةٍ واجهها -عليه الصّلاة والسّلام- حادثةُ الإفكِ والكذبِ والافتراء على أمّ المؤمنين السّيدة الطّاهرة عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنها وأرضاها-، تلك الحادثة التي كشفتْ عن شناعةِ جرمِ المجرمين وبشاعته، والتي وقعتْ في السّنة الرّابعة أو الخامسة للهجرة.

تقصُّ عائشةُ هذه الحادثة بنفسها للتّابعين بعد حوالي أربعين أو خمسين سنةً، والرّواية في الصّحيحين.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيّهن خرج سهمُها خرج بها معه [وهذا مِن عدله ﷺ]، فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجتُ معه بعد ما أنزل الحجاب [أي: بعد نزول وجوب الخمار؛ وهو غطاء الوجه]، فكنتُ أُحمَلُ في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك [وهي غزوة بني المُصْطلِق]، ودنونا من المدينة قافلين [أي: راجعين]، آذن ليلة بالرحيل [فهم بالعادة يسيرون صباحًا وبالليل ينامون أما في تلك الليلة أذن الرسول ﷺ بالرحيل]، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيتُ حتّى جاوزتُ الجيشَ. فلما قضيتُ شأني [أي: قضيتُ حاجَتي] أقبلتُ إلى رَحلي، فلمستُ صدري فإذا عِقدٌ لي ثمينٌ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي فحبسني [أي: أخّرَني] ابتغاؤُه والبحثُ عنه، وأقبلَ الرهطُ فاحتملوا هودجي فرحلوه ووضعوه وثبتوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه [أي: حملوا هودجَها ويعتقدون أنها موجودةٌ فيه]، وكان النساء إذ ذاك خِفافًا لم يغشهنّ اللحمُ، فلم يستنكرْ القومُ خفّةَ الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السّنِّ [أي: كانت هي وباقي النسوة -آنذاك- يأكلْنَ بقايا الطعام ولا يُكثِرنَ، والهودجُ بالأصل

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه.

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه.

ثقيلٌ عبارةٌ عن حديدٍ وأقمشةٍ، وهي كانت خفيفةً وصغيرةً، ولذلك لم يشعروا بعدم وجودها عندما حملوا الهودج]، فبعثوا الجملَ فساروا ووجدتُ عقدي بعدما سار الجيش، فجئتُ منازلَهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيبٌ [أي: ليس بها أحدٌ]، فرجعتُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسةٌ في مكاني غلبتْني عيني فنمْتُ، وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش [أي: تركه الرسول ﷺ وراء الجيش ليجمعَ ما تَخلَّفَ من متاع الجيش]، فسار أوّل الليل فأصبح عند منزلي [أي: اقترب من المكان الذي غفوتُ به]، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ فعرفني حين قد رآني، وكان قد رآني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني [أي: بقوله إنّا لله وإنّا إليه راجعون، بسبب استغرابه مِن نسيان زوجة الرسول ﷺ]، فخمّرتُ وجهيَ بجلبابي [وهذا دليلٌ على وجوب الخمار]، ووالله ما كلّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، حَتَّى قَرَّبَ الراحلةَ لي [أي: قرّبَ منها حيوانًا لتركبَ عليه، ورَكِبَتْ إلى أنْ وَصَلتْ إلى الجَيْشِ الذي كان قدْ سَبَقَهما]. تقولُ عائشةُ: فهَلَكَ مَن هَلَكَ في شأني [أي: مَنْ تكلَّمَ في عِرضي]، وكان الذي تولّى كِبْرَ الإفك [أي: معظمه] عبد الله بن أبيّ بن سلّول [المنافق الذي أطلق مقولتَه الشنعاء لمّا رآهما يقدمان معًا: والله ما نجا منها ولا نجتْ منه، وهذا قذفٌ مباشرٌ في عِرضهما]، فقدِمنا المدينةَ فمرضتُ حين قدمتُ شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعرُ بشيءٍ من ذلك [حيث ظلّ الناس طيلة الشهر ليس لهم كلامٌ سوى الخوض في هذا الموضوع]، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرف مِن رسول الله ﷺ اللطفَ [أي: الرفقَ والشفقةَ] الذي كنتُ أرى منه حين أمرضُ، إنّما يَدْخُلُ عليّ فيسلّم، ثم يقول: (كيف حالك؟)، ثمّ ينصرفُ، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بشيء، حتى خرجتُ بعدما نقهتُ [أي: تماثلتُ للشفاء]، فخرجتُ معي أمّ مسطح [خادمتها]، فانطلقتُ أنا وأمّ مسطح، فأقبلتُ معها قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثَرتْ أمّ مسطح في ثوبها وكادتْ تسقطُ، فقالت: (تَعِسَ مسطح) فقلتُ لها: بئس ما قلتِ! أتسبّين رجلًا شهد بدراً؟ فقالتْ: أي هنتاه [أي يا هذه] أولمْ تسمعي ما قال ومَن معه؟ قلتُ: وما قال؟ فأخبرتْني بقول أهل الإفك فيّ، فازددتُ مرضًا على مرضي، فلمّا رجعتُ إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ فسلّمَ، ثم قال: (كيف حالكِ؟ بفتورٍ)، فقلتُ له: أتأذنُ لي أنْ آتي أبوَيّ؟ قالتْ: (وأنا حينئذٍ أريدُ أنْ أستيقنَ الخبرَ مِن قِبلِهما) قالت: (فأذِنَ لي)، فجئتُ أبوَيّ فقلتُ لأمّي: يا أمّاه! ماذا يتحدّث النّاسُ؟ قالتْ: يا بُنَيّة! هوّني عليكِ فواللهِ لَقَلّمَا كانتِ امرأةٌ قطّ وضيئةً [أي: حسنةً جميلةً] عند رجلٍ يحبّها ولها ضرائرُ إلا كثّرنَ عليها الكلامَ، فقلتُ: سبحان الله! أولقد تحدّثَ النّاس بهذا؟! فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ [أي: لا ينقطع] ولا أكتَحِلُ بنومٍ [أي: مِن السهر] حتى أصبحتُ أبكي، فدعا رسولُ الله ﷺ عليًّا بن أبي طالبٍ وأسامةَ بن زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ [أي: تأخّر نزولُه] يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالتْ: فأمّا أسامةُ فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءة أهله، فقال: (يا رسول الله أهل ولا نعلمُ والله عنهم إلا خيراً). وأمّا عليٌّ فقال: (يا رسول الله لم يضيّقِ اللهُ عليك والنساء سواها كثير) وإن تسألْ الجارية تصدقْك، قالتْ: فدعا رسول الله ﷺ بريرة [الجارية] فقال: (أي بريرة، هل رأيتِ مِن شيءٍ يُرِيبُكِ من عائشة؟ قالتْ له بريرة: لا والذي بعثكَ بالحقّ ما رأيتُ عليها أمرًا قطّ أغيبُه عليها، غير أنّها جارية حديثةُ السّنّ تنامُ عنِ العجينِ فتأتي الطيورُ والدجاجُ فتأكله..)، تقول عائشة: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذرَ من عبد الله بن أبيّ وهو على المنبر [أي: طلب مَن يعذره منه، أي ينصفه]، فقال الرسول ﷺ: (يا معشر المسلمين! مَن يعذرني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاهُ في أهل بيتي؟ فوالله ما علِمْتُ على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا [يقصدُ صفوان] ما علِمتُ عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي). تقول عائشةُ: فقام سعدُ بن معاذٍ الأنصاريّ فقال: (أنا يا

رسول الله أعذرك منه، فإنْ كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإنْ كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلْنا أمرَك، فقام سعدُ بن عبادةٍ وهو سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا ولكنْ اجتهلتْه الحميةُ، فقال لسعدِ بن معاذٍ: كذبتَ لَعمر اللهِ لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيدُ بن حُضيرٍ -وهو ابن عمّ سعدِ بن معاذٍ- فقال لسعدِ بن عبادةٍ: كذبتَ لعمر الله لنقتُلنّه فإنّك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين، فثار الحيّان الأوس والخزرج، حتى همّوا أنْ يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يُخفضهم [أي: يُسكِنهم] حتى سكتوا وسكت). تقول عائشةُ: فبكيتُ يوميَ ذلك كلّه لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ حتى إني لَأظنُّ أنّ البكاءَ فالقٌ كبدي، فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، دخل رسول الله ﷺ علينا فسلّمَ ثم جلس، ولم يجلسْ عندي منذ قِيل ما قِيل قبلها، وقد لبثَ شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني بشيءٍ. قالت: فَتَشَهَّدَ رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: (أمّا بعد: يا عائشة، فإنّه قد بلغَني عنكِ كذا وكذا فإنْ كنتِ بريئةً فسيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ أَلممتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبِه ثمّ تابَ إلى اللهِ تابَ اللهُ عليه). قالتْ: فلمّا قضى مقالتَه قلص دمعي [أي: انقطعَ] حتّى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلتُ لأبي: أجِبْ رسولَ الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ، فقلتُ لأمّي: أجيبي رسولَ الله ﷺ فيما قال، قالتْ أمّي واللهِ ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنّ لا أقرأُ من القرآن كثيرًا: إنّي واللهِ لقد علِمتُ أنّكم قد سمعتُم بهذا الحديث حتّى استقرّ في نفوسكم وصدّقْتُم به، فلَئِنْ قلتُ لكم إنّي بريئةٌ لا تصدّقوني بذلك، ولَئِنِ اعْترفتُ لكم بأمرٍ واللهُ يعلمُ أنّي منه بريئةٌ لَتُصَدِّقونَنّي، وإنّي واللهِ ما أجدُ لي ولكم مثلًا إلّا كما قال أبو يوسف [تقصد يعقوب عليه الصلاة والسلام] حين قال: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"، ثمّ تحولتُ فاضطجعتُ على فراشي، واللهُ يعلمُ إنّي حينئذٍ بريئةٌ، ولكنْ واللهِ ما كنتُ أظنُّ أنّ اللهَ منزلٌ في شأني وحيًا يُتلَى، ولَشأني في نفسي كان أحقرَ من أنْ يتكلّمَ اللهُ فيّ بأمرٍ يُتلَى ولكنّي كنتُ أرجو أنْ يرى رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيًا يُبرّئُني اللهُ بها، فواللهِ ما رام [أي: ما فارق] رسولُ اللهِ ﷺ مجلسَه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أنزل اللهُ عليه، فأخذه ما كان يأخذُه من الشدّة والمشقّة عند الوحي [أي: شدّة الكرب عند نزول الوحي] حتى إنّه لَيتحدّرُ منه من العرق مثل الجمان [أي: مثل اللؤلؤ] وهو في يوم شاتٍ [أي: يومٍ مُمطِرٍ] مِن ثقل القول الذي أُنزِل عليه. قالتْ: فسرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أوّل كلمةٍ تكلّمَ بها أنْ قال: "أبشري يا عائشة أما الله فقد برّأكِ"، فقالتْ لي أمي: قومي إليه، فقلتُ: والله لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلا اللهَ - عزّ وجلّ- فهو الذي أنزل براءَتي، قالت: وأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... العشر الآيات التي في سورة النور﴾.

فلمّا أنزل اللهُ هذا في براءتي، قال أبو بكرٍ الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: واللهِ لا أنفقُ على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾قال أبو بكرٍ الصديق: (بلى والله إنّي لَأحِبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي) فأَرجَعَ إلى مسطح النفقةَ التي كان ينفق عليه، وقال: "والله لا أنزعُها منه أبدًا"[٤].

هذه -عبادَ الله- هي قصة وحادثة الإفك بتمامها، والمعاناة بكاملها، روتْها أمُّنا أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها، ولنا معها **دروسٌ وعِبرٌ**

❖ **بعضٌ من الدّروسِ المُستَخلَصة من حادثة الإفك:**

في الحقيقة؛ إنَّ هذهِ الواقعةَ تحمل في طيّاتها دروسًا لا تنتهي، ولا يتّسعُ مقامٌ ولا مقالٌ لها جميعَها، وسأذكرُ لكم ما وفّقني إليه المولى - جلّ جلاله-:

١- الدّورُ الوظيفيّ لرسول الله ﷺ:

إنّ رسولَ الله ﷺ وهو في هذا الموقف الذي صارت فيه زوجُه العفيفةُ الشّريفةُ محلَّ تهمة، يجمع بين الدّورين الشّخصيّ والوظيفيّ، فهو وإنْ كان زوجًا لعائشة -رضي الله عنها- ويعرفها جيدًا ويستحيل أنْ يصدّقَ ما قيل فيها، إلّا أنّ وظيفته -باعتباره إمامَ المسلمين والحاكمَ السّياسي لهذه الدّولة الإسلاميّة النّاشئة- تفرضُ عليه أنْ يتعاملَ مع القضيّة التي أمامَه بكلِّ حيادٍ، ويأخذَ ما قيل بعيدًا عن العاطفةِ الشّخصيّة حتّى يُثبِتَ بالدّليل والبرهان القاطعِ براءتَها، فالغالبيّةُ في مجتمعِ الإسلام يتحدّث بما تفوّه به ابن سَلول رأسُ المنافقين **"والله ما نجا منها ولا نجت منه"**، ولذلك ما إنْ سمع رسول الله ﷺ ما قيل، وعرفَ ما كان من ابنِ سَلول حتّى اعتزلَ زوجَه - رضي الله عنها-، وتسألُه - رضي الله عنها- عن سبب ذلك؟ فيقول: "يا عائشة! إنْ كنتِ بريئةً فسيبرّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممْتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه"[٥].

٢- مُراعاةُ المشاعر:

مِنْ أشدِّ ما آلمَ عائشةَ -رضي الله عنها- انعدامَ اللّطْف؛ وهذا يدلُّ على أنّ الإنسانَ يحتاج إلى مراعاةِ مشاعره، لأنّها إذا ما جفّتْ كان الموتُ أرحمَ، فإذا كنّا قد أُمِرنا أنْ نراعيَ مشاعرَ الحيوان، فما بالُك بالإنسان؟ فقد أمرَنا النّبي ﷺ بمُراعاةِ الذّبيحةِ عند الذّبح، وعدمِ ذبحِها أمامَ أخواتها.

---

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه.

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه.

فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "...وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ"[٦].

فكم منّا مَن يتجاهلُ مشاعرَ الآخرين، ولا سيّما الأقربين؟ وكم منّا مَن لا يراعي أحاسيسَ المرضى؟ وكم مِن أناسٍ يحتاجون لشعورٍ دافئٍ ونحن نبخلُ بتقديمه لهم؟

٣- خطورةُ ترويجِ أخبارِ السُّوء:

فعلى الإنسان ألّا يبادرَ في نقلِ الأخبارِ السّيّئة، لأنّها تُدمّرُ المجتمعَ، وتفكّكه، وتنشرُ العداوةَ والبغضاء، فتؤدي إلى انتشارِ الحقدِ والكره؛ لأنّ ذلك يتّصلُ بالنّميمة، بل هو أسوأُ أنواعِها، وهو مُحرَّمٌ بشكلٍ قطعيٍّ إلّا إذا دعتِ الحاجةُ كخوفِ مفسدةٍ ونحوه. فالله - سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة: ٢).

وإنّ مثلَ هؤلاء كُفَّ أذاهم عن المسلمين مطلبٌ شرعيٌّ، فعن عبد الله بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ"[٧]، فالنبي ﷺ وهو أوسعُ النّاسِ صدرًا، وأحسنُهم خُلُقًا وأكثرُهم حِلمًا واحتمالًا، يقول لك: لا تأتِ وتقلْ فلانٌ قال كذا، وفلانٌ صدرَ منه كذا، وفلانٌ فعلَ كذا؛ لأنّ هذا يُوقِعُ في النّفسِ شيئًا ثقيلًا، فيبقى قلبُ الإنسانِ مُنشغلًا بما سَمِعَ، وبالتّالي لا يخرجُ إلى هؤلاء النّاس بقلبٍ سليمٍ، فمَن أراد أنْ يخرجَ إلى النّاس وهو سليم الصّدر فلا يجعلْ أُذنَه وعاءً لكلِّ ما تسمع.

٤- حُسْنُ التّربية:

عندما ذهبتْ عائشة -رضي الله عنها- إلى بيتِ أهلِها لِتتأكّدَ من صحّةِ ما يُشَاعُ عنها، وعلى الرَّغم من عدمِ نزولِ براءتِها آنذاك، لكنّ أباها لم ينهرْها، بل كان يحتضِنُها ويُقبّلُ خدَّها، ولمْ يغضبْ من زوجِ ابنته رسولِ الله ﷺ بل كان حزينًا عليه، كما أنَّ أمَّها لم تُشعِرْها بعدمِ الثّقة، بل هوّنتْ عليها مُصابَها بحكمةٍ مبهرةٍ، وبكلامٍ وأسلوبٍ يُدرَّسان، فأخبرتْها -كما ذكرنا- بأنّه مِنَ الطّبيعي أنْ تتعرّضَ امرأةٌ جميلةٌ، محبوبةٌ عند زوجِها بشدّةٍ، ولها ضرائرُ، لمثل هذا. فيا لهُ مِن احتواءٍ! فكم نحن بحاجةٍ ماسّةٍ لِمثلِ هذه القِيَم في التّربية.

---

[٦] أخرجه مسلم في صحيحه.

[٧] أخرجه أبو داود في سننه، وضعّفه الألباني.

٥- الشُّورى:

ليس بعد الشُّورى حلٌّ خاصّةً إذا كان الإنسانُ واقعًا في ظرفٍ يُعيقُ قدرتَه على التّفكير، وها هو رسولُنا ومُعلّمُنا محمّدٌ يرشدنا إلى الشُّورى في المُلِمّات والشّدائد، على الرّغم من أنّه رسولُ الله وأحكمُ الحكماءِ ومرجِعُ النّاس جميعًا، فقد استشارَ أسامةَ وعليًّا في فراقِ أهله، اللّذان أشارا بعدمِ فعل ذلك - كما ذكرنا-، ولمْ يقلْ أنا رسولٌ ولا أحتاج أنْ يمليَ عليّ أحدٌ ما أفعل، حتّى أنّ الله -تعالى- لم يفصلْ في كتابه العزيز بين رُكنَي الصّلاة والزّكاة إلّا مرةً واحدةً، بل كانتِ الشُّورى هي الفاصل، قال - جلّ جلاله- : ﴿والَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُوْرَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾(الشورى:٣٨).

٦- الوفاءُ:

نحن نحتاجُ إلى الصّديق الوفيّ الذي يهوِّنُ علينا، الصّديقِ الذي يصدُقُ في أحلكِ الظّروف، ولا ينجرفُ وراءَ الإشاعات والأقاويل، ولا يتركُ في نفسِه أيَّ مجالٍ للوساوسِ والشّكوك، وهذا ما كان مِن (بريرة) خادمةِ عائشةَ عندما سألها رسول الله ﷺ: "أي بريرة، هل رأيتِ مِن شيءٍ يُرِيبُكِ من عائشةَ؟ قالتْ: ما رأيتُ أمرًا عليها أمرًا أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السّنِّ، تنامُ عنِ عجينِ أهلها فتأتي الداجنُ فتأكله."[٨].

٧- جبرُ الخواطر:

إنّ أصحابَ القلوبِ النّبيلةِ والنّفوسِ الحيّةِ يستشعرونَ ما يعانيه أمثالُ هؤلاء في مثلِ هذه الحال، فتكون منهم المواساةُ وتضميدُ الجراحِ ولو بالكلمةِ أو الدّمعة التي معهما يحسُّ هذا المكلومُ بأنّ هناك مَن بقيَ لديه بقيّةُ ثقةٍ بشخصِه وبراءتِه ممّا نُسِب له ظلمًا وزورًا. فقد ذكرتْ كتبُ السّيَر أنّ امرأةً من الأنصارِ دخلتْ على عائشة -رضي الله عنها- في حادثةِ الإفك، وبكتْ معها دونَ أنْ تنطقَ بكلمةٍ، فتقول عائشةُ -رضي الله عنها- بعد سنينَ خلتْ: "لا أنساها لها"[٩]، مع أنّها ظلّتْ صامتةً لم تتفوّهْ بحرفٍ، ولكنّه الموقف، ولذلك كان جبرُ الخواطرِ عبادةً عظيمةً يستحقُّ صاحبُها الشّكرَ العميقَ والدّعاءَ الصّادقَ بأنْ يجبرَ اللهُ خاطرَه حين تنكسرُ الخواطرُ يوم التّغابن.

٨- لا تُوادّ مَنْ حادّ اللهَ ورسولَه:

لاحِظْ -أخي القارئ- أنّ النّبي ﷺ يقومُ على المنبر مُستعذِرًا من هذا المنافق -عبد الله بن أُبي بن سلول- ثم يقوم رجلٌ من ساداتِ المسلمين من عشيرةِ ابن سلول، وهو (سعد بن عبادةٍ)؛ ذلك أنَّ ابنَ سلول من الخزرج رهطِ سعدٍ بن عُبادةٍ، فيقومُ ويدافعُ عنه بهذه القوّة، في موقفٍ لا يحتملُ التّبرئة، مع أنّه كما قالتْ أمُّنا عائشة - رضي الله عنها- :

---

[٨] أخرجه البارِي في صحيحه.

[٩] أخرجه البخاري في صحيحه.

"كان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكنِ اختملته الحميّةُ"[١٠]، فقد كاد بعصبيّته أنْ يُشعلَ فتنةً وحربًا بين الأوسِ والخزرج، لولا تدخُّلِ رسول الله ﷺ بحكمتِه ورجولتِه رغمَ مُصابه.

فلا تُضِعْ صلاحَك -أيُّها المسلم- لأجلِ عَصَبِيّةٍ مقيتةٍ، وإيّاك أنْ تُدافعَ عنِ الظّالمِ، فيتشجّعَ ويتمادى في الظّلم والعدوان، ولو كان من دمكَ، فرابطةُ الحقّ أقوى من رابطةِ الدّم.

٩- الصّبرُ الجميلُ:

مِن المُلفتِ جدًّا طريقة تعاطي عائشة -رضي الله عنها- مع القضية بالصبر، وليس بأيّ صبرٍ، بل بالصبر الجميل: وهو الصبرُ الذي لا شكوى معه لأحدٍ من الخلق، فلم تتحدّثْ -رضي الله عنها- عن إخلاصها وطهارتها، ولم تُعطِ الناس محاضَرةً عن حُسْنِ تربيتها، ولم تُعَدِّدْ أمام زوجها ﷺ صفاتِها الحسنة، ولم تُذكّرْه بأيِّ شيءٍ حَسَنٍ من محاسنها، بل قرّرتْ أنْ تلجأَ للصبر الجميل، وأنْ تستعينَ بالله العليم، وهذا الدرس مِن أعظم الدروس التي قدّمتْها عائشة -رضي الله عنها- على الإطلاق، والدرس الذي يجب أنْ نتحلّى به في كل المواقف لا سيّما الشديدة منها، وهذا يعكس فهمها للدّين، ويؤكّدُ الحضورَ القويَّ للقرآن العظيم في قلبها، فاختصرتْ الموضوع بقولها: " وإنّي -واللهِ- ما أجدُ لي ولكم مثلًا إلّا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾(يوسف:١٨)"[١١].

١٠-اللّجوءُ إلى الله وحدَه:

مِن الدُّروسِ العظيمةِ التي قدّمتْها لنا عائشة -رضي الله عنها- مِن تلكَ المصيبة: أنّها لم تلجأْ إلى زوجٍ، ولا إلى أبٍ أو أمٍّ، ولم تستندْ إلى أيّ جاهٍ، بل فزعتْ إلى الله العليّ العظيم بكلّ ثقةٍ ويقينٍ؛ لأنّها تعلمُ أنّ الله تعالى هو المُنجّي الوحيد، فقد كانتْ تثقُ بأنّ اللهَ سيُبَرِّئُها، لكنّها كانتْ تتوقّعُ أنْ تتمَّ تبرئتُها عن طريقِ رؤيا يراها رسول الله ﷺ، لكنّ الله تعالى كريمٌ ذو فضلٍ عظيمٍ، إذ برّأها في اللّحظة التي جفّتْ فيها دموعُها بقرآنٍ يُتلى إلى أنْ تقومَ السّاعةُ.

ولا شكّ أنّ صلاحَها سببٌ مِن أسبابِ إغاثتها؛ فقد كانت تتصدّقُ بمعظمِ ما تملك، وكانت تنفقُ كلَّ ما يأتيها مِن اللّحم أو غيرَه من الطعام وهي صائمةٌ لوجه اللهِ -تعالى-، فتقول لها خادمتها -بريرةُ- عندما يحينُ الإفطار: لو أنّكِ أبقيتِ شيئًا نفطرُ عليه، فتقول لها عائشة: "لو ذكّرتِني لفعلتُ"[١٢]. فلاحِظْ -أخي في الله- إلى أيّ درجةٍ كانت تهضمُ حقَّها، وكم مِنّا اليوم -إذا صامَ- وضع جدولًا لموائدِ الإفطار قبل أيامٍ، وربّما قبل أشهرٍ.

---

[١٠] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١١] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١٢] أخرجه البخاري في صحيحه.

وقد وردَ في بعضِ الرّوايات أنّها كانت عندما تصلّي قيامَ اللّيل تقفُ عند الآية العظيمة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾(الطّور: ٢٧).

فتمكثُ فيها تردّدها طوالَ اللّيل وهي تبكي.

١١- الإخلاصُ لله -تعالى-:

عندما جاءَ رسول الله ﷺ يبشّرُ عائشةَ بنزولِ الوحيِ وتبرئتِها، قالت لها أمُّها: "قومي إلى زوجكِ ﷺ"، فقالتْ عائشة: "واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلّا اللهَ -عزّ وجلّ- فهو الذي أنزلَ براءَتي"[١٣].

فلمْ تنسَ اللهَ في سَرّائِها ولا في ضَرّائِها، فجعلتْ شكرَه وحمدَه - جلّ وعلا- مُقدّمًا على كلّ شيءٍ.

لقد حصدتْ عائشة -رضي الله عنها- ثمرةَ صبرِها وقوّةِ علاقتِها بالله - جلّ جلاله-، فأنزل الله -عزّ وجلّ- في حقّها آياتٍ عظيماتٍ مهولاتٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(النور: ١١_١٩).

١٢- لا تجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانكُم:

قام أبو بكر بمنعِ النّفقةِ عن قريبِهِ مسطحِ بن أثاثة، وقال: "واللهِ لا أنفقُ عليه أبدًا"؛ لأنه اشتركَ في حديثِ الإفك.
لكنّ الكمالَ والمقاييسَ والفضائلَ عند الله –تعالى- بيّنت بأنّ هذا طريقٌ وذاك طريقٌ آخرُ، فنهى اللهُ - تباركَ وتعالى- أهلَ الفضلِ في الدِّين والسّعة في المال عنِ الحَلْف على تركِ صلةِ أقربائهمُ الفقراءِ والمحتاجين

[١٣] أخرجه البخاري في صحيحه.

والمهاجرين، ومنعِهم النّفقة؛ بسبب ذنبٍ فعلوه، ولْيتجاوزوا عن إساءتِهم، ولا يعاقبوهم. فإذا كان المسلمُ كذلك فسيتجاوزُ اللهُ -تعالى- عنه.

يقول الحقُّ - جلّ جلاله-: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور: ٢٢).

إنّ العبرةَ من هذه الحادثة التي وقعتْ هي أنّ الله -تعالى- يحذّرنا من استعمالِ القسمِ والحَلْفِ به، فلا يجوز منعَ البِرّ أو صلةِ الرّحم أو منعَ الإصلاحِ بين النّاس، وأنّ مَن حلفَ على أيِّ شيءٍ ورأى غيرَه خيرًا منه فليفعلِ الخيرَ وليكفّرْ عن يمينه؛ لأنّ الإنسانَ المؤمنَ حينما يحلفُ على ألّا يعملَ خيرًا فهو يضعُ اللهَ -تعالى- حاجزًا بينه وبين الخير، وبذلك يكون هناك تناقضٌ عند المؤمنِ بأنْ جعلَ المانعَ من فعلِ الخير الحلفُ بالله، فاللهُ -تعالى- هو الذي يأمرُ بالصّلاح والتّقوى بين النّاس.

١٣- الإسلامُ دينُ الفُرَص:

لم تقلْ زينبُ بنتَ جحشٍ -ضَرّةُ عائشة- في ضرّتها إلّا خيرًا، "قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا.."[١٤]، أمّا أختُها حَمْنَةُ بنت جحشٍ خاضتْ مع الخائضين في عِرض عائشة، ظنًّا منها أنّ ذلك سيصُبُّ في مصلحةِ أختِها.

ومِن الضّرورة بمكانٍ ما الوقوفُ عند نقطةٍ غايةٍ في الأهمية؛ فالإسلامُ دينُ اللّين والتّسامح، والبابُ مفتوحٌ أمامَ المسلم دومًا، فالله -تعالى- لم يُخرِجْ المؤمنينَ الذين اشتركوا في قذفِ عائشةَ وصفوانَ مِن الإيمان؛ لأنّ ذنبَهم صدرَ قبل أنْ يتبيّنَ الحكمُ، وهذا لا يشملُ المنافقينَ بالتّأكيد.

فمِن فضلِ الله -تعالى- علينا أنّه جعلَ لِمَنْ يُخطِئُ كفّاراتٍ تُطهّرُه، يقول النبيّ ﷺ: "...وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ... "[١٥].

[١٤] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١٥] أخرجه البخاري في صحيحه.

وهذا ما حدثَ في قضيَّةِ عائشة -رضي الله عنها-، فلم يقمِ النّبي الحدَّ ﷺ على الخائضين في عرضِ عائشة إلّا على **المؤمنين فقط**، وهم: حسّانُ بن ثابتٍ، ومِسْطَحُ بن أثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحشٍ، فحَدَّهُم النّبيُّ ﷺ حدَّ القذف، ثمانينَ جلدةً. أمّا المنافقون فما حَدَّهم النّبي ﷺ أبدًا؛ إمّا لأنّ الحدَّ تطهيرٌ وكفَّارةٌ، والمنافقون ليسوا أهلًا للتّطهير ولا للكفّارة، وهذا تعليلٌ واضح؛ واضحٌ من حيث المعنى، لكن من حيث الواقع قد لا يكون واضحًا؛ لأنَّ المنافقين يُظْهِرُون أنّهم مسلمون، فكان ينبغي أنْ تُجْرَى عليهم أحكامُ الإسلام الظّاهرة، وتبقى سرائرُهم إلى الله -عزّ وجلّ-، وقال آخرون: إنّما لم يَحُدَّهم النّبي ﷺ لأنّهم ما كانوا يُصَرِّحون، ولكنّهم كانوا يجمعون الحديثَ ويصيغونَه بعباراتٍ تعطي معنى الزّنا، ومعلومٌ أنّ مَن لم يُصَرِّحْ بالزّنا لم يُحَدّ للقذف، فلذلك لم يحدّهم النبيُّ ﷺ.

١٤- <u>إحسانُ الظّنّ</u>:

مِن فوائدِ هذه الحادثة أنّها ساهمتْ في تربيةِ المجتمع المسلم على كيفيّةِ الكلام والخِطاب وحسنِ الظّنّ والاعتذار، وهذا ممّا تأمرُنا به شريعتُنا على الدّوام، فالمسلمُ مُطالَبٌ بالاعتقادِ الحسنِ بالنّاس، وبتقديمِ النّيّةِ الحسنةِ على السّيّئة، وبالبحثِ عن مخارجَ طيّبةٍ لبعضنا البعض، لا سيّما في مسائلِ الأعراض التي قد تُراقُ لأجلِها الدّماء.

وأنتَ -كمسلمٍ- إذا وصلتْكَ إشاعةٌ، فأيُّ الناس أنتَ؟ مُرَوّجٌ؟ أمْ قاطعٌ؟ أمْ مُصلِحٌ؟ هل ستكون المؤمنَ أمْ شيطانًا مِن شياطين الإنس؟

فليس الأمرُ هيّنًا، فاسلُكْ نهجَ الصّالحين، ولا تكنْ عونًا للشّياطين، واجعلْ أخبارَ الفُحش تقفُ وتموتُ عندك، و**"التمس لأخيك المسلم سبعين عُذرًا"** كما أوصى السّلف -رحمهم الله- فليستِ الأرقام هي المقصودةُ بحدّ ذاتها إنّما المقصودُ التّكثير، فأكثِرْ مِن الأعذارِ لإخوتك -رعاكَ الله- ما استطعتَ، وتذكّرْ أنّ اللّسانَ سببٌ لفسادِ معظمِ المجتمعات، فلا تستخدمْه -أخي في الله- في هتكِ الأعراض، وقذفِ المُحصَنين والمُحصَنات، وفي تشويهِ وتزويرِ الحقائق، وفي الافتراءِ والتّزييف، والاعتداءِ على الحُرُمات...

كان هذا غيضٌ مِن فَيضٍ حولَ الدّروس والعِبر والمواعظ والأحكامِ المُستَقاةِ مِن حادثةِ الإفك، ذلك أنّها تحمِلُ في طيّاتها فوائدَ لا تنتهي.

أقولُ هذا وأسألُ الله - سبحانه وتعالى- أنْ يرضى عن أُمِّنا عائشةَ، وأنْ يجمعَنا بها وبرسولِ اللهِ ﷺ في الفردوس الأعلى، وأنْ يجعلَنا ممّن يحمي سمعَه وبصرَه، وممّن يتقي الله -عزّ وجلّ- بلسانه.

وآخرُ دعوايَ أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسلين سيّدِنا ونبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها